

أسطورة غزو المسلمين لشبه الجزيرة الإيبيرية:
حفريات إغناسيو أولاغوي في تكوين هذه الأسطورة
وانتشارها بين العالمين الإسلامي والنصراني على السواء.

~~~~~ أ. د محمد عبد الواحد العسري \*

تظهر بين الفينة والأخرى أبحاث ودراسات في العلاقات التي جمعت وما فتئت تجمع بين العالمين الإسلامي والنصراني أو بين الجغرافية الثقافية لكل من الغرب والشرق ضمن استراتيجيات بديلة؛ تضع نصب عينها إعادة النظر في تواريخ هذه العلاقات وبنائها الأساسية لمراجعتها في ضوء الحوار الحضاري الذي يتعين عليه التعبير عن الحاجيات والمصالح المعاصرة لهاذين العالمين ومواكبتها. ومن المعلوم في هذا المضمار، بأنه قد اتخذت بعض هذه الأبحاث من الأندلس نموذجاً دالاً على تجليات التنافر والتلاقي بين هاذين العالمين<sup>(1)</sup>.

غير أنه كادت تجمع هذه الأبحاث في معظمها على أن التنافر هو الذي شكل بداية هذا اللقاء وكذا نسغه العام ومحركه الأساس؛ بحيث انتهى إلى نهايته المحتومة التي تمثلت في طرد الأندلسيين المسلمين المسمون المورييسكيين من أندلسهم أو من إسبانية وإجلالهم عنها تحت طائلة التعذيب والتقتيل.

ومن المعروف كذلك بأنه تجري اليوم في إسبانية وفي بعض الجهات من العالم تخليد ذكرى انصرام 1300 سنة ميلادية على دخول الإسلام إلى الأندلس وانتشاره فيها. وذلك في الوقت الذي لم تراجع فيه بما يكفي بعد "المسلمة" التي أجمع عليها المؤرخون على اختلاف مشاربهم العلمية وحساسياتهم الإيديولوجية والحضارية في موضوع دخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وانتشاره بين أهلها. فلقد ذهبوا في هذا الصدد إلى أن المسلمين قد غزوا شبه الجزيرة الإيبيرية أو قد فتحوا عنوة الأندلس فيما بين 709 و711 ميلادية، لينشروا بين أهلها دينهم الجديد ويحملوهم قسراً على الدخول فيه وفي ثقافته وحضارته. ولاغرو في ذلك؛ فهذا الزعم هو ما نقف عليه في الحوليات القديمة العربية الإسلامية، واللاتينية النصرانية اللتين اهتمتا معاً بمسألة دخول الإسلام إلى الأندلس وانتشاره بين أهلها. وهي ذات الحوليات التي سينطلق منها مؤرخو هذا الموضوع ودارسوه المختلفين والمتعددين، وإليها سينتهون؛ بحيث لم يعودوا يعوون بعد بالاستدلال على هذا الزعم الذي أضحي عندهم وعلى أيديهم

\* - أستاذ التعليم العالي في التاريخ - كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة عبد المالك السعدي - بتطوان.

مسلمة في ذاتها تكاد لا تستدعي أبدا ضرورة البرهنة عليها.

من أجل ذلك ارتأيت، كما أملت سابقا، إعادة النظر في هذه "المسلمة" والاستدلال على أن دخول الإسلام إلى الأندلس وانتشاره فيها لم يتوسل أبدا بالغزو العسكري أو بالفتح عنوة. وفي هذا السياق، وبالنظر إلى أن أطروحة الباحث الإسباني "إغناسيو أولاغوي فيدلة"<sup>(2)</sup> في هذا الموضوع تكاد لم تعرف بعد في العالم الإسلامي، مثلما أنها تكاد لا تروق لأحد في الغرب النصراني، وبخاصة في إسبانية، فإني سأعمل فيما يلي على التعريف بها من خلال التقديم لها وترجمة أجزاء منها. يتعلق الأمر برؤية أخرى ومغايرة لتكون الأندلس في التاريخ أو لدخول الإسلام إلى شبه الجزيرة الإيبيرية وانتشاره فيها عبر التلاقي وخارج التناهي بين العالمين الإسلامي والنصراني لمطلع القرن الثامن الميلادي. وهي الرؤية التي يذهب بمقتضاها إغناسيو أولاغوي إلى أن الإسلام من حيث كونه معتقدا وشرائع وثقافة لم يتوسل في دخوله إلى إسبانية بالغزو المرعوم بين المؤرخين والدارسين، بل بوسائل أخرى لا ينتبه إليها أحد بالنظر إلى سيطرة أطروحة هذا الغزو عليهم وتحولها إلى أسطورة متجذرة فيهم ومترسخة بينهم.

هل غزا العرب المسلمون شبه الجزيرة الإيبيرية؟ من المعلوم أنه يكاد لا يكثر أحد من مؤرخي هذه الجزيرة من المسلمين أو من غيرهم بطرح هذا السؤال<sup>(3)</sup>. فلقد شكل هذا الغزو بالنسبة إلى جميع المهتمين بتاريخ هذه الجزيرة وبدخول أهلها في الإسلام واتخاذهم منه ومن الثقافة العربية مكونا أساسا من مكونات هويتهم في مطلع القرون الوسطى، مصادرة لا تقتضي البرهنة عليها، فهي بينة بذاتها؛ بل إنها ضرورية لقيام أي بحث في هذا التاريخ، الذي لا يمكنه أن ينجز إلا بعد التسليم بها والانطلاق منها. ومن المعروف كذلك، بأن هذه المسلمة قد شكلت وتشكل في جميع مدارس العالم وجامعاته ومراكز بحوثه في مغارب الأرض ومشارقها، بما في ذلك البلاد العربية والإسلامية منها، موضوعا من أهم موضوعات التاريخ العام التي يجري تناولها وتعليمها وترديدها بالشكل الذي لا يسمح بتسرب الشك إليها، أو بمراجعتها أو تمحيصها، أو على الأقل بتنسيب الحديث فيها وعنها. فلا غرو إذا إن أجمع المؤرخون القدماء والحديثون والمعاصرون، على اختلاف تصوراتهم للتاريخ ومناهجهم في تأسيسه وعلى تنوعها وتنوع مشاربهم الإيديولوجية والدينية، وتمكنهم من أساليب النقد والمراجعة المعاصرة، على أن شبه الجزيرة الإيبيرية، التي تحتضن اليوم دولتي إسبانية والبرتغال من بعد احتضانها لدولة الأندلس الإسلامية، قد خضعت للغزو العربي الإسلامي الذي بسط هيمنته عليها بالحديد والنار وحملها وأهلها على الديانة الإسلامية والثقافة العربية، وحولها إليهما قسرا وعنوة<sup>(4)</sup>.

لكن هل غزا العرب المسلمون، بالفعل، شبه الجزيرة الإيبيرية، وحلوا أهلها عنوة على الدخول في الإسلام والحياة وفق مقتضياته ومقتضيات الثقافة العربية؟

يذهب إغناسيو أولاغوي فيدلة في كتابه المذكور إلى أن العرب المسلمين لم يتوسلوا أبداً بالغزو المسلح لنشر دينهم في هذه الجزيرة وبين أهلها. وللاستدلال على ذلك قدم جملة من الاعتراضات على ما أجمع عليه المؤرخون في هذا المضمار، ليعمد بعد ذلك إلى تقديم تصوره الخاص لكيفية انتشار الإسلام وثقافته بين الإيبيريين الذي أسهمت فيه عوامل أخرى لا علاقة لها بالغزو المزعوم. فأما اعتراضاته فهي كثيرة ومختلفة ومتنوعة وتكتسي، في نظرنا، قيمة علمية ونقدية ملحوظة ووجيهة. وأما تصوره الخاص لدخول الإيبيريين في الإسلام وثقافته، فإنه لا يقل عن اعتراضاته وجاهة ومهابة. وما يهمننا في هذه الورقة هو أن نقف على أهم اعتراضاته على أطروحة الغزو وأن نقدمها، على أن نكتفي بالتعريج على تصوره لانتشار الإسلام في هذه الجزيرة<sup>(5)</sup>.

كما يذهب إغناسيو أولاغوي كذلك إلى أن هذا الغزو ليس أكثر من مجرد أسطورة **El Mito de la Invasion** جاءت لتفسر تحول الجزيرة الإيبيرية إلى الإسلام، من بعدما تم هذا التحول وليس خلال مدة تحققه التاريخية. فالمصادر العربية الإسلامية واللاتينية النصرانية التي أنتجت أطروحة توسل المسلمين بالحرب للظفر بهذه الجزيرة ونشر دينهم بين ظهرانيها، لم تنتج خلال زمن هذا الغزو ولم تواكبه؛ بحيث إنما لن تبدأ في الظهور إلا بعد انصرام قرنين عن زمن تحققه المزعوم. ولقد قدم أولاغوي هذا الغزو - الأسطورة كما استوى في هذه المصادر ثم في جميع كتب التاريخ التي تلتها إلى اليوم واستعرضه بكل أمانة ودقة، في كثير من فصول كتابه وكلما دعت الضرورة إلى ذلك.

ويمكن إجمال محتوى هذه الأسطورة ومضمونها كما يلي: سيطر العرب المسلمون على الجزيرة الإيبيرية وهيمنوا على مجمل مساحتها البالغة 584.192 كيلومترا مربعا، مخضعين أهلها إليهم وإلى دينهم الجديد بالحديد والنار فيما بين 711 - 713م/92 - 94 هجرية. وذلك ضمن غزوهم لنصف العالم المعروف في هذه المرحلة من التاريخ وظفرهم به. ولقد تم لهم ذلك على يد 7000 مقاتل بقيادة طارق بن زياد الذي هزم آخر ملوك القوط ياسبانية المسمى "لودريق" في الحوليات العربية أو "رودريغو" **Rodrigo**، آخر ملوك القوط، في الحوليات اللاتينية، قبل أن يغبطه على هذا النصر موسى بن نصير، الذي سيلحق به على رأس جيش آخر قوامه 25.000 جندي، ليتم بذلك سحق الإيبيريين ويضمن بهذه الطريقة نشر الإسلام بينهم وإلحاقهم عنوة به وبثقافته. كما يمكن إجمال قسم من اعتراضات أولاغوي على نفس هذه الأطروحة في مثل هذه التساؤلات الاستنكارية التي لم يكل عن تقديمها وعن تفصيل الأقوال والأدلة فيها. كيف كان يمكن للعرب المسلمين تجهيز الجيوش وتجهيزها للقيام بغزو نصف العالم المعروف آنذاك وتدبير الهيمنة عليه، والحال أن المناخ الحار لبلادهم الأصلية، شبه الجزيرة العربية، وبالتالي غط إنتاجهم الاقتصادي ووسائله الناتجة عنه، ما كانا ليسمحاً أبداً

بذلك<sup>(6)</sup>؟ وكيف كان يمكن لنفس هؤلاء الغزاة الطمع في غزو شبه الجزيرة الإيبيرية، والحال أنها لم تكن قد دانت لهم بصفة تامة ونهائية بلاد الشمال الغربي لإفريقيا؟ ثم كيف كان يمكن لهم العبور بجيوشهم إليها عبر مضيق جبل طارق، في الوقت الذي لم يكن من الممكن لهم التوافر فيه على مراكب كافية لذلك<sup>(7)</sup>؟ وهل كان يمكنهم التغلب بعددهم المذكور على ملايين الإيبيريين وبسط هيمنتهم على مجموع الجزيرة الإيبيرية، بتضاريسها الوعرة والمعقدة، بهذه السرعة الخيالية وفي زمن قياسي لا يتعدى ثلاث سنوات؟ وبالإضافة إلى ذلك، ألم يكن حريا بالإيبيريين مقاومة هؤلاء الغزاة بدلا من التفرج عليهم ومشاركتهم في ذلك، أو الهروب منهم للاختباء بأودية منطقة أستورياس Asturias في شمال جزيرتهم، والحال أن هذه الأودية، لم تكن، بالنظر إلى جغرافيتها الطبيعية لتسعهم جميعا ولتتيح لهم إمكانية العيش بها مدة طويلة من الزمن؟ وكيف كان يمكن للعرب والمسلمين أن يقتلوا جميع الإيبيريين ويبيدوهم عن آخرهم على الرغم من عدم توافرهم في ذلك الزمان على أسلحة كافية بتحقيق ذلك؟ والواقع أن كتاب أولاغوي ليحفل بكثير من جنس هذه الاعتراضات الاستنكارية التي شكلت له صك اتهامه الإخباريين القدماء والمؤرخين المحدثين "بالسكوت عنها، بل بعدم التفكير في طرحها أصلا، لكي لا تنهار أطروحتهم في الغزو العربي المزعوم. ولقد فضلوا بدلا من ذلك، دعوتنا إلى أن نتصور معهم بأن الإيبيريين قد وقفوا يتفرجون على المسلمين يأخذون منهم بلادهم ودينهم وحضارتهم، لينخرطوا بعد ذلك في سبات عميق لعدة قرون متتالية"<sup>(8)</sup>. وفي هذا المضمار، فإنه إن التمس العذر للإخباريين القدماء المسلمين العرب واللاتينيين النصارى على السواء في عدم تسليحهم في إعداد روايتهم للغزو المزعوم بالחס النقدي المطلوب لذلك، فإنه لم يلتمسه للمؤرخين المحدثين والمعاصرين الذين يتوافرون على إمكانية إخضاع هذه الروايات إلى مناهج النقد التاريخي التي يتقنونها، ويتقاعسون عن تشغيلها عندما يتعلق الأمر ببلوك أطروحة انتشار الإسلام بين الناس بما يمارسه عليهم من عنف في غزوهم وقتلهم<sup>(9)</sup>. وبالنظر إلى أن هؤلاء المؤرخين قد اكتفوا بترديد روايات القدماء عن غزو العرب المسلمين للجزيرة المذكورة من دون أي نقد أو تمحيص، فلقد عاد إغناسيو أولاغوي بدوره إلى هذه الروايات في مصادرها اللاتينية والعربية ليستفرغ جهدا متواصلا في نقد مضامينها ودحضها وتقويضها من بعد وقوفه على حدودها وإبراز لغايتها إلخ...<sup>(10)</sup>.

ولعلنا لن ننقل كاهل هذه المساهمة في هذا الكتاب الجماعي لو ضمناها قسما مما ند به قلم إغناسيو أولاغوي من الفصل الثالث لكتابه الذي خصصه للنظر في هذه المصادر<sup>(11)</sup>. وهو النظر الذي خلص منه إلى أن الغزو العربي الإسلامي لشبه الجزيرة، لم يشكل واقعا تاريخيا من وقائع تاريخ هذه الجزيرة ولا تاريخ انتشار الإسلام بين الناس ودخولهم فيه؛ مما يمكن أن يعد في ذاته مراجعة لكل من

التصورات الغربية النصرانية والعربية الإسلامية للعلاقة بين العالمين المذكورين.

"سيستغرب قارئ هذا الكتاب عندما يعلم، مثلما علمنا بدورنا لحظة شروعا في إعداد هذه الدراسات منذ ثلاثين سنة خلت، بأنه لم تتوافر، لحد الآن للمؤرخين مصادر معاصرة للغزو العربي لإسبانية. لذلك فإنه ما زال بعضهم يرجع إلى الأسقف إيسيدورو باسانسي **Isidoro Pacense** ويحيل عليه بوصفه شاهد عيان على وقائع هذا الغزو وأحداثه، على الرغم من تأكيد الجميع، ومنذ أكثر من قرن، من الطابع الخرافي لكتابه. والواقع أننا لا نفتقد إلى مثل هذه المصادر فقط، بل إننا نفتقد كذلك إلى مصادر معاصرة لجمل هذه المرحلة عن تاريخ المتوسط وشمال إفريقيا والشرق الأدنى. ويعود ذلك إلى اندراج كل هذه الجهات من عالم تلك المرحلة في مسلسل الصراعات الدينية، التي أسهمت في تدمير مختلف الوثائق الكفيلة بالتشويش على تكون الهويات داخل النزاعات الأهلية المرافقة لتلك الصراعات والتشغيب على مثلها وعلى منطق اشتغالها. ولقد وقف على هذا الفراغ المصدري أحد مؤرخي الغزو العربي لإسبانية إدواردو سايدرا **Eduardo Saavedra** الذي سجل "بأنه لم يكتب نصارى شمال إسبانية ولا عربها ولا مستعربها أي شيء عن تاريخ إسبانية الممتد فيما بين مرحلي مملكة فامبا **Reino de Vamba (682)** ومملكة أفونسو الثالث بليون **III de Alfonso** **Alfonso León (882)** (12). كما وقف على نفس الفراغ مؤرخ الإمبراطورية البيزنطية لويس برييه **Bréhier Louis** الذي "أكد بأنه إن كنا لا نجهل أي شيء عن أية مرحلة من مراحل الإمبراطورية البيزنطية، بحيث احتفظ لنا كل قرن منها بحولية ومؤرخ، فإننا نجد أنفسنا أمام فراغ وثائقي مهول بالنسبة لمرحلة الغزوات العربية لهذه الإمبراطورية، الممتدة فيما بين القرن الثامن والقرن التاسع؛ بحيث لا تخبرنا عن وقائعها إلا المصادر التي أنجزت في مراحل لاحقة عنها" (13).

ولا نرى من جهتنا بأن هذه المصادر كفيلا بتجلية غموض الحالة العامة لتكون الأفكار وانتشارها في تلك المرحلة، من بعد تحولها أو اندثارها ونهايتها في بيزنطة أو في طليطلة أو في قرطبة. فالواقع أن السياق العام لإنتاجها كان يعيقها بالقوة وبالفعل عن إمكانية إعادة تأسيس هذه الحالة. كما أن لم يكن بمقدور الإخباريين إدراك أهمية الأفكار وأدوارها الحاسمة في المجتمعات والتاريخ. وذلك فضلا عن أن الأفكار بطبيعتها لا تترك بعد تحولها أو زوالها في الأذهان والعقول والذكريات التاريخية، أثارا من مثل الآثار التي تتركها أحداث محاصرة المدن وويلات الزلازل والأوبئة وما يترتب عادة عن موت الأمراء والملوك إلخ. فلم يكن بمقدور مؤلفي تلك المصادر من المسلمين ومن النصارى استعادة الحالة العامة لتكون الأفكار الدينية التي اشترطت مرحلة التحول الذاتي لمعظم شعوب شبه جزيرة إيبيرية من النصرانية الأريوسية المتصارعة مع النصرانية الكاثوليكية إلى الديانة الإسلامية. فلقد اندثرت هذه

الحالة وانصرفت بانصرام مرحلتها، وابتعادها عنهم بمسافة قرنين أو ثلاثة قرون. ولم يعد أي أحد من هؤلاء الإخباريين يتعرف إلى نفسه أو أهله فيها وبواسطتها؛ من بعدما لبس معهم هوية دينية جديدة، مغايرة لهوية أسلافه المسلمين أو النصارى زمن التحول المذكور. وهي الهوية التي يتحتم عليه اليوم، بحكم مهنته، الإسهام في تأسيسها وجوهرتها، باختراع حكاياتها المتجذرة في ماضيها التليد والنقي. لقد كتب كل واحد من هؤلاء الإخباريين أخباره عن أسلمة إسبانية وتعريبها في مرحلة لاحقة وبعيدة عن مرحلة الغزو المزعوم، وفي الوقت الذي كانت قد اتسعت فيه الهوة بين الإسلام والنصرانية واستحكم بين أهليهما العداء المتبادل، نتيجة الإصلاحات الدينية الإسلامية المرابطية والنصرانية الكلوونية التي أخضعوا إليها بالجزيرة الإيبيرية<sup>(14)</sup>.

لذلك كان يجب على جميع الإخباريين المسلمين والنصارى نسيان مرحلة امتزاج النصرانية الأريوسية بالإسلام وضرورة انصهار هذين الدينين معا في البوتقة الخلاقة التي أسفرت عن تلك الأسلمة وهذا التعريب، لكي لا يشوشوا على الأسس الدغمائية الجديدة لهويات للسلط التيقراطية الإسلامية والنصرانية المتصارعة على الجزيرة. وهكذا فلقد كان من الأفضل للنصراني من هؤلاء أن يكتب في مصادره بأن قوة عربية وأجنبية وبعيدة عن أرضه وأهله قد غزتها وظفرت بهما عنوة، ويدافع عن ذلك؛ على أن يعترف بما كان موجودا بأرضه وبين قسم كبير من أسلافه من معتقدات نصرانية أريوسية مخالفة لنصرانيته الكاثوليكية الحالية، مهدت أمامهم الطريق للتحويل التلقائي إلى الإسلام. [لقد كان لسان حاله يقول بالتصريح والتضمين، بأنه قد أخذت من أهله أراضيهم ومعتقداتهم بالقوة، وبأن عليهم أن يأخذوا بأسباب القوة لاسترجاعها.] كما أنه كان من الأفضل للمسلم من أولئك الإخباريين أن يحتفي في مصادره بأجداد أسلافه من الفرسان العرب المسلمين الذين فتحوا الجزيرة عنوة ونشروا فيها دينهم بسرعة فائقة. وذلك لكي لا يقر بدوره بأن هذه الجزيرة أو أندلسه لم تنقلب بين عشية وضحاها إلى الإسلام على الحالة التي يوجد عليها اليوم، بل تحولت إليه نتيجة امتزاجه بأريوسية أهلها وانصهاره معها في الدينامية الطبيعية لتطور الأفكار فيما بين الإسلام والأريوسية، التي لم يعد الإصلاح المرابطي يسمح بها. [لقد كان عليه تقوية مشاعر الاعتزاز بين أهله باستعادة أجداد أسلافه الميامين الذين قاتلوا لتوريثهم ميراثا، بات من الواجب عليهم الأخذ بأسباب القوة للمحافظة عليه.]

وهكذا ارتاح جميع الإخباريين، على اختلافاتهم الدينية لأطروحة غزو العرب لإسبانية، وألبسوها لبوس الأسطورة الذي التحم بها في القرن الثاني عشر، ليشكل لها ثوابتها البنائية النهائية، وليضمن لها بذلك إمكانية التردد والاستنساخ في أعمال المؤرخين الذين سيأتون بعدهم. وما زاد هذه الأسطورة

قوة وثباتا كذلك بين عموم المسلمين والنصارى، اعتمادهم جميعا تفسيرا غيبيا لجريان أحداث هذا الغزو المزعوم ووقائع، نتيجة عجزهم عن تفسيره تفسيرا عقلانيا ومعللا، لا يتحدى قوانين التاريخ والجغرافية التاريخية. فذهب المسلمون إلى أن معجزة انتشار الإسلام بإسبانية ترجع إلى العناية الإلهية التي شملتهم وضمنت لهم التفوق العسكري على أعدائهم. وتبع النصارى هؤلاء في اعتماد نفس الطابع الغيبي لتفسير نفس الأمر. فلقد أرسل الرب إليهم، على حد زعم أحدهم خيمينث دي رادة **Jiménez De Rada**، السرسانيين [المسلمين الشرقيين] وسلطهم عليهم بالحديد والنار عقابا لهم على ما اقترفوه من آثام على عهد القوط الغربيين. ومشهورة في هذا المضمار قصة خيانة رودريغو، آخر ملوك القوط الإسبانية، للدوق يوليان الذي كان يمثل سيادته على جهة سبئية من الشمال الغربي من إفريقية، ويحكمها باسمه. وهي النقطة التي ستفيض كأس هذا التفسير الغيبي. فلقد كان قد أرسل هذا الحاكم إلى بلاط ملكه بطليطلة ابنته واثمنه على تربيته وتأديتها. غير أن هذا الأخير أغواها وفسق بها. وللانتقام لشرف ابنته المهضوم، ومن ملكه الخائن لعهد ولربه، بادله الخيانة بالخيانة، بتحريضه للعرب على غزو إسبانية، وتيسير عبورهم المضيق إليها<sup>(15)</sup>. فلا عجب إذا، إن رمى الرب بالعرب هذه البلاد وأهلها؛ عقابا لهم على كل هذه الخيانات المتبادلة وهذه الآثام الجنسية المقترفة بينهم، ليغزوهم بقوة رياح السموم الحارة التي حملوها معهم من صحرائهم.

فأية قيمة وثقية يمكن أن نخلعها على مثل هذه المصادر التي تروي أحداثا لم تعاصر مرحلة وقوعها المزعومة، ولا تتردد، بالنظر إلى المناخ الفكري العام الذي شرط وضعها وإنتاجها، في اعتماد مثل هذا التفسير الغيبي للتاريخ، فضلا عن تناقضها وتضاربها فيما بينها عند رواية نفس الوقائع؟ وكيف يمكن أن يعتمدها المؤرخ على الرغم من تضمنها لأخطاء ومفارقات بينة في ذاتها، وخرافات لا يمكن أن تصمد أمام أبسط شروط الحس المشترك؟

والحق أن مثل هذه التساؤلات لم تغب أبدا عن المؤرخين المحدثين في تعاملهم معها، بحيث لم يترددوا في الاعتراف بقصورها وبهذه العيوب الفادحة التي طالتها. غير أن ذلك لم يمنعهم، فيما خلا فيليكس داهن<sup>(16)</sup> من الاعتماد عليها في تأريخهم للغزو العربي لإسبانية. والظاهر أنه قد عزت عليهم التضحية بما كانوا قد استفروغوه من جهد مضني في تعاملهم معها. فلقد اعتمدها في هذا المضمار ليفي بروفنسال على الرغم من تعبيره صراحة عن عيوبها، ففي معرض مقارنته بين ما قدمته العربية منها من معطيات عن مرحلة آخر ملوك القوط الغربيين بإسبانية، الذي يفوق ما أعدته نظيرتها النصرانية في نفس الموضوع، شكك فيما "بلورته كليهما عن هذه المرحلة"، مؤكدا كذلك عدم "معاصرة أية واحدة منها للأحداث والوقائع التي ترويها عن القرن الثامن، ما دامت أنها قد كتبت في قرون لاحقة

عليه<sup>(17)</sup>. كما أنه لم يتردد في اعتمادها إدواردو سيابيدرة مسوغاً ذلك بقوله: "بأنه إن كان يجب علينا أن نقفل الباب في وجه دراسة مرحلة ما من التاريخ، بسبب المفارقات والمنتاقضات والاختلالات الكرونولوجية التي حشدت فيها، وأن نهمّل بكل ازدراء جميع ما رواه عنها الإخباريون القدماء، فإنه لن نكتب، تبعاً لذلك، أهم صفحات تاريخ الإنسانية العام"<sup>(18)</sup>.

وعندما نذهب من جهتنا بأن جميع هذه المصادر قد كتبت في مراحل لاحقة عن المرحلة التي أرخت لها، فإن ذلك لا يعني عندنا، بأنه لم توجد أبداً مصادر معاصرة للقرن الثامن والتاسع، تكون قد واكبت مرحلة تفاعل الإسبانين الموحدين بمعتقدهم النصراني الأريوسي مع المسلمين بمعتقدهم الموحّد كذلك، وعبرت عنها خير تعبير. فكل ما في الأمر أنها قد أتلّفت واختفت. ولا غرو في ذلك، فلكونها كانت قد وضعت باللغة اللاتينية، فلقد توفقت النصرانية الأرثوذكسية في متابعتها ومحاربتها، وتحلّى عنها أهلها بتخليهم عن اللاتينية ونسيانها عند تعلمهم للعربية وبعد تعريبهم. ومع ذلك فإنه يمكن الوقوف على بعض أصداء هذه المرحلة الخلاقة من تاريخ إسبانية في بعض المصادر الإخبارية اللاحقة عليها، التي وصلنا منها الكتاب الذي ينسب إلى إيزيدورو باسنسي وكتاب أحمد الرازي. ويكتسي هذان المصدران أهمية خاصة في هذا المضمار، لما يتضمنانه معاً من المؤثرات البيزنطية، وبالنظر إلى أن كلا من مؤلفيهما قد عاش بمجنوب الجزيرة الإيبيرية؛ مما يسوغ لنا إدراجهما ضمن المصادر الأندلسية، في ترتيبنا وتصنيفنا مجموع مصادرنا عن هذه المرحلة.

ومنها المصدر الموسوم بأخبار مجموعة، وهو مصدر مغربي جمع فيه صاحبه مجموعة من الحكايات التي بقدر ما كانت تروى من جيل إلى آخر، بقدر ما كانت تبالغ في إضفاء هالة التقديس والبطولة على عبور الأسلاف المغاربة إلى إسبانية في القرن الثامن، وعن ملحمتهم في هذه البلاد. لقد تحول هؤلاء الأسلاف، الذين أسهموا في الصراع الدائر بين الموحدين والمثلثين من أبناء الجزيرة، إلى أبطال أسطوريين ومعجزين.

وتتوافر في هذا المضمار كذلك مصادر مصرية كان لها دور أساسي وحاسم في تكون أسطورة الغزو وترسخها. نذكر منها كتاب ابن عبد الحكم عن فتح العرب لمصر الذي سيتخذ إخباريو غزو العرب لإسبانية من حكاياته الخرافية نموذجاً احتدوه في وضع حكاياتهم عن موضوعهم. ذلك هو ما نقف عليه عند ابن القوطية وابن عذارى والمقري وغيرهم.

ومن المصادر الأندلسية الأخرى كتاب التاريخ المنسوب لابن حبيب المتوفى في 835م، الذي بين رينهارد دوزي بأنه من وضع تلميذه المنسوب إليه ابن أبي الرقاع الذي كان يمزج بين علمه الخاص وتعليم أستاذه<sup>(19)</sup>. ومنها كتاب حديث الإمامة والسياسة الذي نسب إلى ابن القوطية (828-889)،

والذي بين دوزي كذلك بأنه قد ألف في 1062م. وعلى غرار المصادر الأخرى، فإن هذين المصدرين لا يعريان بدورهما عن المبالغات والخرافات البينة في ذاتها.

ومعلوم بأنه لا يمكن لجميع هذه المصادر أن تكتسي اليوم، من حيث القيمة الوثائقية، أية حجة في مجال موضوعاتها التي تخبر عنها. لذلك فأهميتها لا تكمن إلا في كونها ضرورية لإعادة تأسيس جذور أساطير انتشار الإسلام في إسبانية وفي العالم.

وقد يجمل بنا التعرّيج على ما يتوافر اليوم من معلومات فيلولوجية حول هذه المصادر وغيرها، قبل الشروع في تناول بعض مضامينها الجلية للمدهش والتخيل فيها.

الحولية اللاتينية المجهولة: لقد استند مؤرخو الغزو العربي لإسبانية على حولية لاتينية مغفلة واعتمدها بصفة أساسية في أعمالهم، ظنا منهم بأنها قد ألّفت في القرن الثامن، لتعاصر بذلك مرحلة هذا الغزو المزعوم، لكونها تروي أحداثه إلى سنة 754. يتعلق الأمر بالحولية المنسوبة إلى إيسيدورس باسينسي **Isidorus Pacense** شماس مدينة باكس خوليا **Pax Julia** المعروفة اليوم باسم باجة. **Beja** ويتبين من مضامينها بأن مؤلفها قد عايش غزو العرب لإسبانية وبسط سيطرتهم عليها. فهو يصف في روايته لأحداث ذلك كيف خربت المدن الإسبانية الكبيرة الواحدة تلو الأخرى، وحرقت عن آخرها لتتحول إلى أنقاض مهجورة، وكيف أربّه العرب أهالي إسبانية، فاسترقوا قسما منهم، وصلبوا قسما آخر، وذبحوا الباقين. والواقع أنه لا يقصر في مثل هذا التوصيف الذي يذكر بعلاقات القيامة ونهاية العالم، بحيث لا يملك المرء فككا عن التساؤل عن كيفية عودة الحياة إلى إسبانية من بعد نهاية هذا الغزو، بله ازدهار حضارتها التي لا يشك فيه أحد.

وتتوافر نسخ كثيرة من هذه الحولية، حيث تحتفظ المكتبة الوطنية بمدريد بخمسة منها، فضلا عن أنها قد ضمنت في نصوص حوليات أخرى. ومن أقدم هذه النسخ وأهمها بالنسبة لموضوعها، نسخة بمكتبة الأكاديمية الملكية للتاريخ بمدريد، ونسخة مكتبة أرسنال **Arsenal** في باريس. ولقد نشر نص هذه الحولية لأول مرة ساندوفال **Sandoval** في كتابه عن تاريخ الشمامسة الخمس<sup>(20)</sup>. كما ضمنها الأب إنريكي فلوريت **Florez** الجزء الثامن من كتابه: إسبانية المقدسة<sup>(21)</sup>. أما تايلند **Tailhand** فلقد نشر نسختيها المحفوظتين في المكتبتين المذكورتين، مستفرا جها نقديا ملحوظا في تعليقاته الكثيرة عليهما<sup>(22)</sup>. كما ترجمها إلى الإسبانية تيوفيليو مارتينث إسكوبار **Teófilo Martinez Escobar**، ونشرها في مجلة الفلسفة والأدب والعلم بإشبيلية<sup>(23)</sup>.

ولقد خلت هاتان النسختان من اسم مؤلف هذه الحولية. أما نسبتها إلى إيسيدورس باسينسي، فإنها ترجع إلى بلاخييو **Pelagio** شماس أوفيدو **Oviedo** الذي ضمن نصها الكامل في حوليته

الشخصية التي تنتهي رواياتها في مطلع القرن الثالث عشر. ولقد استدل رينهارد دوزي بما فيه الكفاية، ومنذ أكثر من قرن، على خطأ بلاخيو في هذه النسبة<sup>(24)</sup>. وكذلك الشأن بالنسبة لتايند، ولجميع من تناولوا من الباحثين والمؤرخين من أمثال تيودور مومسن<sup>(25)</sup> **Teodor Mommsen** وفرانيسكو سيمونيت<sup>(26)</sup> **Federico Simonet** وإدوارد سيابيدرة؛ بحيث لا أحد منهم اقترح له مؤلفاً معروفاً. والواقع أنهم لم يقصروا في دراسة مختلف الإشكالات الفيلولوجية التي يطرحها هذا النص، اللهم إشكال تحديد المرحلة الزمنية لتأليفه ووضعه، وكأنه إشكال ثانوي لا يستحق منهم إهدار وقتهم وجهدهم العلمي في دراسته!! ولا غرو في ذلك، فالواقع أنهم ما صدقوا وقوفهم ولو على نص واحد لشاهد عيان مجهول يشهد على مرحلة الغزو العربي لإسبانية، من دون أي دليل على ذلك، غير دليل انتهاء رواياته إلى سنة 745. وغني عن البيان أنه لا يمكن الاعتداد بمثل هذا الدليل، على تلك الدعوى، ما دام يمكن لأي إخباري أو مؤرخ أن يروي وقائع تاريخية تنتهي إلى مرحلة ما من دون أن يعني ذلك، بالضرورة، بأنه قد شاهدها أو عاش خلالها. وفي مقابل ذلك، فإننا نرى من جهتنا بأن هذا النص يعود إلى نهاية القرن التاسع أو بداية القرن العاشر. فكتاب مدرسة قرطبة الذين أحالوا على كثير من نصوص القرن الثامن، لم يذكروا قط هذه الحولية، ولا صاحبها القرطبي المزعوم ولا كتبه المفترضة. أفلم يكونوا بحاجة إليه بوصفه قرطبياً، وبحاجة إليها، لما تتضمنه عن الأعداء المسلمين، وهم الذين انتظروا أن يزودهم إليوخيو **Eulogio** بكتاب عن هؤلاء، تحصل عليه خلال مقامه بنبدة **Navarra** بشمال إسبانية في النصف الثاني من القرن التاسع؟ كما أنه لم يذكرها غيرهم من علماء إسبانية وإخباريها، قبل 1243، تاريخ تضمين هينيث دي رادة **Jiménez de Rada** لنصها في كتابه عن تاريخ إسبانية **Historia de Rebus Hispaniae**. وفضلاً عن ذلك، فإنه لم يعرف، على حد رينهارد دوزي، أي نص من نصوص القرون الوسطى ما عرفه نص هذه الحولية اللاتينية المجهولة، من عبث الأيدي، بالحذف منه والزيادة فيه وحشوه. ذلك هو ما يمكن أن يدركه بكل وضوح ومن دون أي جهد، أي واقف على هذا النص، عندما يقرأ في بعض فقراته أسلوباً مغايراً لأسلوبه العام، وعندما يقرأ فيه سطوراً منتورة في بنيته النظامية، وعندما يقف فيه كذلك على ما رسمه من تداخلات واضطرابات كرونولوجية وقف عليها فلوريت وأشار إليها عند تضمينه هذا النص كتابه: إسبانية المقدسة. لقد جاء في مقدمة هذه الحولية بأنها تقف في روايتها للأحداث عند سنة 754، غير أن ذلك لم يمنعها من تأبين شماس مات في 783!! ولم يستطع تايلند، للالتفاف على هذا الأمر، غير إرجاعه إلى ما هو من قبيل الإضافات في هذا النص.

فأية قيمة وثقية يمكن أن تخول لنص هذه الحولية بالنسبة إلى موضوعها وصفتها التي تزعمها

لنفسها؛ من حيث كونها شهادة عيان على وقائع غزو العرب لإسبانية وسيطرتهم عليها في القرن الثامن؟ الواقع أنه لا يمكن أن يتمتع بأية قيمة من هذا النوع. غير أن قيمته الحقيقية تكمن فيما هو أهم من ذلك كله. فلقد جاء هذا النص، من حيث مضامينه وأسلوبه، ليعبر خير تعبير عن الروح العامة للمرحلة الحقيقية التي كتب فيها، وليس عن وقائع مرحلة القرن الثامن التي يدعي نسبه إليها. فلم يكن يستطيع كاتب هذه الحولية المغفلة التخلص من قبضة أسطورة غزو العرب لإسبانيا، التي كانت تنظم العلاقات العدائية المتبادلة بين المسلمين والنصارى من أهالي إيبيرية في القرن العاشر أو فيما سبليه من القرون. أما مرحلة القرن الثامن، التي امتزج فيها الإسلام بالنصرانية الأريوسية في بوتقة خلاقة، فلم يكن يستطيع تذكرها، أو إعادة كتابتها في حوليته، وهو يعيش على إيقاع هذا العداء المستحكم بين مشروعين دينيين وحضاريين مختلفين لكل من هؤلاء النصارى وأولئك المسلمين. وثائق مرحلة ما بعد القرن الثامن ونصوصها:

المسكوكات: تحتفظ المكتبة الوطنية بباريس ونظيرتها بمدريد بتوصيفات دقيقة لبعض المسكوكات التي ضربت في إسبانية عبر التاريخ. ومن خلالها يتضح بأن هذه المسكوكات ستتداخل تدريجياً فيما بينها لتخضع بالتالي إلى تغيرات جذرية، بمقدار تداخل وتغير الرموز الدينية والسياسية التي تحيل عليها الرسوم والنقوش المسكوكة على وجهيها. لقد تميزت مرحلة بداية القرن الثامن بمزاجية عملات أخرى للعملة القوطية الغربية، ثم بتعويضها. فإلى جانب العملة الأموية التي عوضت صليب العملة القوطية بسارية أو صومعة، وجدت عملات أخرى، عوضته بنجمة. غير أنها لم تكن عربية أو إسلامية؛ بل دليل لغتها اللاتينية، وعدم إحالتها على أي معنى إسلامي خالص. مما لا شك فيه أن هذه العملات، وإن لم تحمل رموزاً أو إيماءات سياسية بينة، فإنها تحيل بمذنين الرمزين المضروبين عليها على انتماءات دينية أخرى. فمن ضرب هذه العملة؟ ولمن سكت؟ وما هي يا ترى الجماعة الدينية الإسبانية التي كانت تتعرف إلى نفسها فيها؟ فإذا علمنا بأن النصوص اللاتينية المسكوكة عليها، تحيل على معاني التوحيد، وعلمنا كذلك بأن النجمة المضروبة عليها قد اتخذها أهل التوحيد رمزاً لهم بصفة تقليدية، علمنا بأن هذه العملة قد كانت عملة الموحدين الإسبان من النصارى الأريوسيين. ولقد تلت هذه العملة وعوضتها عملات مزدوجة اللغة؛ بالعربية واللاتينية، قبل أن تسلك في القرن التاسع دنابر عربية إسلامية خالصة. وفي هذه الصيرورة من القرن الثامن إلى القرن التاسع، ومن العملة النصرانية القوطية إلى العملة العربية الإسلامية، مروا بالعملة الأريوسية والعملة المزدوجة، ما يعضد ما نذهب إليه وندافع عليه في هذه الدراسة. فلم ينتشر الإسلام في إسبانية عنوة ولم يتم تعريبها بالسرعة التي يدعيها المؤرخون؛ نتيجة غزو عربي جامح لم يبق ولم يذر، بل بصفة تدريجية، تعبر عن إحدى علاماتها البارزة،

الضرورة التاريخية التي أطرت تفاعلات هذه العملات فيما بينها، وشرطت مختلف تحولاتها المذكورة<sup>(27)</sup>.

وثائق مرحلة القرن العاشر وبداية القرن الحادي عشر ونصوصها: ظهرت في هذه المرحلة البعيدة جدا عن مرحلة القرن الثامن ثلاثة حوليات عربية وإسلامية أندلسية ومغربية، وهي أخبار مجموعة، وأخبار الرازي، وأخبار ابن القوطية. وبالنظر إلى هذا البعد الزمني، فلقد أسست جميع هذه الحوليات رواياتها عن هذا القرن ضمن السياق الإيديولوجي والديني الجديد للقرن العاشر وما تلاه، الذي شرط طرائق تذكرها وصياغتها. كما أنها قد أسهمت، بما تخللها من روايات لا يمكن تصديقها، في ازدهار كثير من الحكايات، وعدد عديد من الخرافات الموازية لأسطورة الغزو العربي لإسبانية، التي استثمرتها الحوليات النصرانية في القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر، وأعادت إنتاجها، لتضمن لها بذلك شروط استمراريتها وديمومتها.

أخبار مجموعة: تشكل هذه الأخبار التي نشر نصها العربي وترجمه إلى الإسبانية إيميليو لافونتي ألقنطرة<sup>(28)</sup>، مصدرا مغربيا جمع فيه صاحبه الخهول في 1007، مجموعة من الحكايات، التي بقدر ما كانت تروى من جيل إلى آخر، بقدر ما كانت تبالغ في إضفاء هالة التقديس والبطولة على عبور الأسلاف المغاربة إلى إسبانية في القرن الثامن، وعن ملحمتهم في هذه البلاد. لقد تحول هؤلاء الأسلاف، الذين أسهموا في الصراع الدائر بين الموحدين والمثلثين من أبناء الجزيرة، إلى أبطال أسطوريين وتحولت أعمالهم في هذا المضمار إلى ملاحم معجزة. غير أن كل هذا لم يمنع رينهارد دوزي وليفي بروفنسال وغيرهما من المؤرخين من اعتماد هذا المصدر بوصفه شهادة عن أحداث الغزو العربي لإسبانية.

أخبار الرازي: فيه صاحبه الرازي أحمد بن موسى، من أهل القرن العاشر، الملقب بالتاريخي، جملة الوقائع التاريخية لشبه جزيرة إيبيرية الممتدة من قبيل مرحلة بداية غزوها العربي على عهد آخر ملوك القوط بإسبانية إلى سنة 976، مروراً بما ترتب عن ذلك من الأحداث المرافقة لتكون الإمارات والممالك الإسلامية الأندلسية بالجزيرة. وينقسم هذا النص إلى ثلاثة أقسام: يتعلق أولها بالجغرافيا، وثانيها بأحداث الغزو، وثالثها بالأحداث المترتبة عنه. ويعد النص العربي المفترض لهذه الأخبار من النصوص المفقودة إلى يومنا هذا، والتي وصلتنا عبر طريق طويل ومنعرج. فلقد قرأ في القرن الرابع عشر أو الخامس عشر مسلم مجهول بلسان برتغالي هذا النص على الراهب خيل بيرث **il Peréz** الذي ترجم إلى الإسبانية ما كان يسمعه بالبرتغالية. لذلك فإن هذا النص، يطرح إشكالات فيلولوجية كثيرة متعلقة بصحة نسبته إلى الرازي، وبما ترتب عن ترجمته الشفهية والفورية من العربية إلى البرتغالية

إلى الإسبانية، من تشويهاات، فضلا عما لحقه، مما لا شك فيه، بعد ذلك من حذفات وإضافات. وتبعاً لكل هذا، فكيف يمكن استخراج الأخبار التي يمكن أن تتخذ قيمة تاريخية ما من مجموع روايات هذا النص الذي وصلنا على هذا الشكل؟ وفي هذا المضمار، فلقد نبه باسكوال دي غايغوس<sup>(29)</sup> على أن القسم التاريخي الأول من هذا الكتاب الذي يتحدث عن رودريغو ليس من وضع كاتب عربي، بل هو مستوحى من رواية مشهورة عن هذا الملك ندبها في 1443 قلم الروائي بيدرو ديل الكورال **Pedro del Coral**. أما إدواردو سيابيدرة فإنه يرى بأن هذه الرواية هي التي استوحى الرازي وليس العكس<sup>(30)</sup>. وفي مؤلفه الضخم عن أصول الرواية، يكتب في مينينديث بلايو **Menéndez Pelayo** يبرز الأشباه والنظائر بين ذاك العمل التاريخي وهذا العمل الروائي الخوض. وبصرف النظر عن هذا الأمر، فإن أهمية هذه الحولية ترجع بالنسبة إلينا إلى كونها، مثل الحولية اللاتينية المجهولة، قد أنتجت داخل التقليد الأندلسي الإخباري للقرن العاشر. وذلك على الرغم من قلة ما يمكن الظفر منها به من أخبار تاريخية مقبولة، بعد إخضاعها لطبيعة الحال إلى التمهيص والنقد في ضوء سياق إنتاجها، وفي ضوء مقارنتها بأخبار أخرى. فلقد أخذنا منها، أخبار المجاعات التي اجتاحت إسبانية خلال القرن السابع والقرن الثامن، في ضوء إعادة تأسيسنا لتاريخ صيرورة تراجع الرطوبة عن الصحراء وجفافها. ولقد نشر نص هذه الأخبار باسكوال دي غايغوس في دراسته المذكورة، وكذلك فعل إدواردو سيابيدرة، مضيفاً إليه ملحفاً في تاريخ أواخر ملوك القوط الغربيين في إسبانية.

أخبار ابن القوطية: على الرغم من كون نسب هذا الإخباري، ابن القوطية أحمد بن عمر، يرجع إلى إحدى حفيدات الملك القوطي غيطشة **Vitiza** الذي أخذ رودريغو عرش إسبانية من أبنائه، فإنه لم يحتفظ في أخباره بأية ذكريات عائلية عن أواخر ملوك القوط الغربيين بإسبانية. ولا غرو في ذلك، فمسلسل التعريب الذي هيمن على إسبانية خلال وضعه لهذه الأخبار في القرن الحادي عشر، حال بينه وبين إمكانية إعادة تأسيس المناخ الحقيقي للواقع التاريخي لمرحلة القرن الثامن التي كانت قد ولت وانتهت. فإن لم يكن من الممكن بالنسبة لسلي القوط أن يسترجع ذلك، فكيف كان يمكن لغيره أن يسترجعه؟

لقد جهز بسكوال دي غايغوس وإدواردو سيابيدرة وفرانيسكو كوديرا النص العربي لهذه الحولية للنشر في 1868. غير أن خوليان ريبيرا إي طارغو<sup>(31)</sup> هو الذي نشره رفقة ترجمته إلى الإسبانية في 1926.

ومن المصادر الأندلسية الأخرى كتاب التاريخ المنسوب لابن حبيب المتوفى في 835، الذي بين دوزي **Dozy** بأنه من وضع تلميذه، المنسوب إليه، ابن إبي الرقاع الذي كان يمزج بين علمه الخاص

وتعليم أستاذه. ومنها كتاب حديث الإمامة والسياسة الذي نسب إلى ابن قتيبة (828-889)، والذي بين دوزي بأنه قد ألف في 1062. وعلى غرار المصادر الأخرى، فإن هذين المصدرين لا يعريان بدورهما عن المبالغات والخرافات البينة في ذاتها<sup>(32)</sup>.

وتتوافر في هذا المضمار كذلك مصادر مصرية كان لها دور أساسي وحاسم في تكون أسطورة الغزو وترسخها. نذكر منها كتاب ابن عبد الحكم عن فتح العرب لمصر الذي سيتخذ إخباريو غزو العرب لإسبانية من حكاياته الخرافية نموذجاً اتبعوه في وضع حكاياتهم عن موضوعهم.

لقد ترجم دو سالن هذه الحولية إلى الفرنسية ونشرها ملحقاً بترجمته لتاريخ البربر من تاريخ ابن خلدون<sup>(33)</sup>. كما ألحق إيميليو لا فونتي ألقنطرة نصوصاً منها بترجمته المذكورة لأخبار مجموعة.

ومعلوم بأنه لا يمكن لجميع هذه المصادر أن تكتسي اليوم، من حيث القيمة الوثائقية، أية حجة في مجال موضوعاتها التي تخبر عنها. لذلك فأهميتها لا تكمن إلا في كونها ضرورية لإعادة تأسيس جذور أساطير انتشار الإسلام في إسبانية وفي العالم. لذلك وجب انتظار مجيء المؤرخ التونسي من أصل أندلسي عبد الرحمن ابن خلدون لكي ترق الكتابة التاريخية العربية معه إلى مستوى نقد الأخبار وتمحيصها، بما في ذلك، بطبيعة الحال، أخبار فتح العرب لإسبانية.

خصائص جميع هذه الحوليات وسماتها العامة: العجيب والغريب في الحوليات اللاتينية: يتضح من المعلومات المتوافرة لنا اليوم بأن أحداث القرن الثامن لشبه جزيرة إيبيرية لم تستجب إلى منافسات أو صراعات سياسية بقدر ما استجابت إلى صراعات دينية وعبرت عنها وواكبتها. غير أن الإخباريين الأوائل الذين تعرضوا إليها لم يهتموا بكيفية حصولها وأضربوا عن اعتماد أي تفسير واضح لأسباب وقوعها ومسبباتها، قبل أن يعتمد لها في وقت لاحق خيمينيث دي رادة **Jiménez de Rada** تفسيراً دينياً نصرانياً، لمواجهة تفسيرها الإسلامي. وضمن هذا الإضراب، لم يهتم أحد من هؤلاء الإخباريين بتحديد العدو الذي تغلب على أهله وبلده. لا أحد منهم يذكر لنا هل يتعلق الأمر بمتهرطق كافر، أم بكلداني أو عربي أو مسلم، أم بجار قريب، أو مغامر أجنبي، أم بدولة أجنبية أرسلت جيوشها للظفر به وبأهله. ولقد كان لهذا الصمت عن هذا العدو وغموضه دور كذلك في تكون أسطورة الغزو العربي لإسبانية. وفي مقابل ذلك فقلد حددت الحوليات اللاتينية عدوها بكل دقة عندما أرخت لانتصاراتها عليه، من دون أي تفريط في طابعها العجائبي. ذلك هو ما نقف عليه مثلاً عند بيكلرة **Biclara** في إخباره عن هزيمة ستين ألفاً من الأروسيين في المنطقة الإيبيرية أمام ثلاثة مئة جندي من جيش ملك طليطلة في سنة 587. وهو ما يمكن الوقوف عليه كذلك في حولية ألفونسو الثالث التي تخبر عن معركة كابزونغا **Cavadonga** التي قتل فيها النصارى مئة وعشرين ألفاً من أعدائهم الكلدانيين أو

العرب، وأرغموا ستين ألفاً منهم على الفرار، قبل أن ينهار عليهم جبل من جبال أسطورياس ليقبرهم تحت أنقاضه إلى الأبد. ولكي يرد صاحب هذا الخبر على استنكار قارئه المفترض لكيفية وقوعه، لم يجد خيراً من مقارنته بما له في توراته عن إقبار الرب لفرعون وجنوده بالبحر الأحمر لتخليص بني إسرائيل من شرهم<sup>(34)</sup>. ولا غرو في ذلك، فالطابع العجائبي قد وسم مراحل وضع هذه الحوليات، لاضطراب الإخباري القديم بالاستنجد بمثل هذه التفسيرات الميتافيزيقية للأحداث، ليبقى متسقاً مع انتماءاته الدينية. ولا يعني هذا الأمر بأن ذاك الطابع العجائبي سينتفي عن أعمال المؤرخين الخدثين والمعاصرين. فالواقع أنه ما زال يتسلل إلى صفحات كتبهم وأبحاثهم، حيث ينعكس، تبعاً لذلك، على المقررات المدرسية، وعلى تشكيل الوعي العام ببعض القضايا التاريخية من مثل الغزو المعني عندنا بهذا الكتاب. كما يتخذ هذا التسلسل أشكالاً مختلفة؛ لعل من أبرزها إصرار هؤلاء المؤرخين على عدم استعادة البحث في أساطير هذا الغزو في ضوء مناهج النقد التاريخي الحديثة والمعاصرة، واعتبارها من القضايا المحسومة أو المتجاوزة.

وهكذا يجري تعطيل آليات النقد التاريخي عندما يتعلق الأمر بروايات تاريخية مترسخة أو بروايات محرجة لقناعاتهم الدينية والإيديولوجية. وذلك في الوقت الذي لا يقصرون في تشغيل نفس الآليات على روايات تاريخية أخرى، ليكلوا بذلك نفس الكيل بمكيالين مختلفين. فهذا الأب فلوريت، الذي ينتمي إلى القرن الثامن عشر، يفسر لنا ظفر جيلبير الأول **Gilbert I** ملك فرنسا بأراضي أمليكو التابعة للملك طليطلة، بعدد جيشه الذي كان يفوق عدد جيش هذا الأخير. غير أنه سرعان ما يعصف بمثل هذا النقد، حيث لا يجد أية غضاضة في قبول خبر بكلارا الذي يذهب فيه إلى أن الكوندي كلوديو **Conde Calaudio** قد غلب بثلاثة مئة جندي جيشاً عرمرماً من ستين ألف مقاتل! ولقد استطاع إلى ذلك سبيلاً لا لشيء إلا لأنه كان يقاتل عن حق الهراطقة الأريوسيين.

مما لا شك فيه أن القارئ لمستغرب كيف يقبل فلوريت من عصر الأنوار مثل هذه الرواية، غير أن عليه أن يستغرب كذلك كيف يقبل، بكل تقاعس نقدي، المؤرخون والمتخصصون المعاصرون في هذا القرن العشرين روايات اجتياح العرب الغزاة لمساحات شاسعة ووعرة من الأراضي الممتدة شرقاً من خليج غابس بليبيا إلى جبال البرانس غرباً في القرن الثامن وفي مدة لا تتجاوز إحدى عشر سنة!! ومع ذلك، فلقد قبل الجميع هذه المفارقة الميثوقة في جميع النصوص التاريخية وفي جميع المقررات الدراسية بمشارك الأرض ومغارها.

والواقع أنه إذ ترجع رواية بيكلورة إلى قناعاته الدينية المتمثلة في عدائه للأريوسيين، فإنها تنسجم كذلك مع روح العصر الذي كان يكتبها فيه، وإلى نمط التفسير الذي كان معتمداً لجميع الحوادث

التاريخية ومنطقه المهيمن عليها. يتعلق الأمر بالتفسير الميتافيزيقي الضارب لجذوره في الروايات الخرافية للعهد القديم التي كان يعتقد فيها جميع الذين كان يكتب إليهم هذا العباد. فإن كان شمسون الجبار قد أتى بما لا يمكن تصديقه، فلماذا لا يقدر على ذلك كلاوديو فيقضي بثلاثة مئة على ستين ألف؟ أما تصديق المحدثين والمعاصرين لما جاء في الحوليات عن الغزو المذكور من قبيل هذه الخرافات، فإنه يحتاج كذلك إلى تفسير. فعلى الرغم من كون تصورات التاريخ ونظرياته ومناهجه قد تغيرت وتطورت منذ عصر النهضة بشكل يتيح للمؤرخ الاستعصام بما من الخطأ والزلل، فالواقع أنه عندما تقيمن عليه الأحكام المسبقة الدينية والوطنية وغيرها فإنه مفرط لا محالة في الروح النقدية لتلك التصورات وهذه المناهج.

يعتقد المؤرخون بأن العرب الرحل قد قدموا من حجازهم إلى إسبانية، فغزوها عسكريا وظفروا بها وبأهلها خلال سنوات معدودات. غير أنه لا أحد منهم ييسط أمامه خريطة ليتساءل في ضوء ما تبرزه له من تضاريس، عن طول الطريق التي كان على الغزاة قطعها للقيام بذلك، وعن وعورته المتمثلة في صحاريه القاحلة وجباله ووديانه المنيعه. ويؤكد المؤرخون كذلك بأن حركة الاسترداد النصراني لشبه جزيرة إيبيرية من العرب المسلمين، قد بدأت مع معركة كاباضونغة المذكورة، من دون أن ينبه أي منهم على استحالة اجتماع الأعداد المذكورة من الجيوش في جيب لا يمكن أن يتسع إلا لعدد قليل من المقاتلين.

وفضلا عن كل هذا فإنه لا بد من التساؤل مرة أخرى عن مغزى تشغيل المؤرخين في هذا المضمار لآليات التمهيص والنقد التاريخي في بعض الأحيان وتعطيله أحيانا أخرى. فلماذا ينقد فلوريث رواية بيكلرة المذكورة ويرفض ما جاء فيها من أخبار غير معقولة، ويعدها مجرد خرافات، في نفس الوقت الذي يعطل فيه هذا النقد، ليقبل ما جاء في حوليات أخرى من خرافات مثيلة عن الغزو العربي المزعوم لإسبانية؟ الظاهر أنه لم يجد أية غضاضة لنقد العباد بيكلرة، لأنه لا أحد من النصارى أو غيرهم سيتحرج اليوم من الاعتراف بالمنافسة الشرسة التي جمعت بين الأريوسيين والكاثوليك في القرن السابع من تاريخ إسبانية. وفي مقابل ذلك، فإنه لم يتجشم ولا يتجشم المؤرخون معه اليوم مشقة نقد الروايات العجائبية التي تحدثت عن الغزو المذكور؛ بحيث تكسني عندهم طابع الحقائق اليقينية، والمسلمات البدهية التي لا تحتاج إلى البرهنة عليها. لماذا يميز المؤرخون بين الخرافات فيرفضون منها ويقبلون؟ لماذا تختفي بعض الخرافات من كتب التاريخ وتبقى أخرى قائمة فيها ومهيمنة عليها باستمرار؟ لماذا اجتثت مثلا خرافة قدوم محمد (ص) إلى إسبانية وتبشيريه بدينه بين أهلها من تاريخ الأندلس<sup>(35)</sup>، في نفس الوقت التي ترسخت فيه خرافة الغزو العربي الإسلامي لنفس هذه البلاد؟ مما لا شك فيه أن هذا الأمر

يؤول إلى أن فكرة التبشير بالإسلام لم تكن مقبولة في ذاتها من طرف الإخباريين اللاتين القدماء. فلقد كانوا يرفضون رفضا تاما فكرة احتمال انتشار الإسلام بين الإسبانيين عن طريق التبشير به بينهم، في الوقت الذي يرسخون فيه فكرة أنه لم يدخل الإسبانيون في هذا الدين إلا عنوة وبجديد الغزو العربي وناره المحرقة. لكل هذا وذاك، فإن السؤال عن معيار الانتقاء والاختيار بين الخرافات يبقى مطروحا على المؤرخين الذين يخرجون كناسة النقد التاريخي لكنس العجيب والغريب من خرافات الحوليات اللاتينية، ويخفونها بعد ذلك، للإبقاء على البنية العامة لأسطورة الغزو التي أخذوها من نفس الحوليات الروائي والتخيل في الحوليات العربية: لا تقيمن الأفكار والمواقف الدينية المسبقة في هذه الحوليات بنفس القدر والدرجة التي هيمنت بها على الحوليات اللاتينية. فالواقع أنها تتوارى لتفسح المجال لهيمنة آليات التخيل على أصحابها وصياغتها وجهورها المعني بها، إلى الحد أننا لا نبالغ أبدا عندما نذهب بأنها قد وضعت لتسلية قرائها أكثر مما وضعت للتأريخ لأحداث وقعت بالفعل. لذلك جاءت مليئة بكثير من الأقصوصات والمستملحات التي تذكر بحكايات ألف ليلة وليلة. ويمكن في هذا المضمار التمثيل على ذلك بجملة من الأمثلة. فلقد جاء في الحولية المغربية البربرية أخبار مجموعة بأن قاندي الفتح العربي لإسبانية قد اختلفا وتخاصما إلى الحد الذي بات عليهما نقل خصومتها إلى دمشق أمام الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، ثم أمام أخيه الذي استخلفه سليمان بن عبد الملك. والغريب أن مرجع هذه الخصومة لا يكمن فيما كان يمكن أن يختلف فيه قائدان عسكريان أمام خليفتهما حول المشكلات السياسية والقتالية التي كان من المفروض أن تنتج عن غزو شبه جزيرة إيبيرية المتراصة الأطراف. أبدا، بل يرجع إلى تحديد من منهما غنم مائدة سليمان من خزائن ملوك القوط بإسبانية. يتعلق الأمر في رواية عبد الملك بن حبيب السلمي بالمائدة التي "قيل أنها كانت من ذهب منظومة بالدر والياقوت والزمرّد... التي يزعم الناس أنها مائدة سليمان بن داود عليهما السلام". ولقد وصلت هذه المائدة إلى إسبانية عندما وقعت في سهم ملكها الذي كان قد غزا "في الزمن الأول" بيت المقدس لمعاوية "اليهود الذين ادعوا قتل عيسى بن مريم عليه السلام". كان طارق هو من غنم هذه المائدة، غير أن موسى طلبها منه، "فأتاه بما ناقصة الرجل، وكان قد اقتلعهما" من قبل. وعندما ادعى بأنه هو الذي أصابها كذبه طارق وقال "بل أنا أصبتها، والدليل على ذلك الرجل الناقصة منها معي، ثم أخرجها فصدقه الوليد وقبل قوله وأعظم جائزته". ماذا وقع بعد ذلك لهذين القائدين؟ يذهب بعض الرواة إلى أن الخليفة جلد موسى بن نصير وسماه بالشيخ الكذاب. ويكتفي صاحب أخبار مجموعة بمعاقبته بالتغريم فقط. أما طارق فلا أحد يذكر لنا أين ذهب بطاولته. والأغرب من كل هذا كله، أن أيا من هاذين الغازيين الكبيرين لم يعد إلى إسبانية، في الوقت الذي كانت عودته إليها ضرورية، لتهدئة الصراعات

والتراعات التي قامت بها بين العرب طيلة سبعين سنة بعد رحيله عنها.

وشبيهة بهذه الحكاية يروي ابن حبيب قصة أخرى متعلقة كذلك بملحمة موسى بن نصير الأندلسية، ليفسر بها، كيف كان يظفر المسلمون بكل سهولة ويسر وسرعة بقلع إيبرية المنيع. فلقد وجد هذا القائد وجنوده أنفسهم يحاصرون "حصنا من حصون شرق الأندلس بضعا وعشرين ليلة" ويلحون في قتاله ولا يقدرّون عليه لمنعه. ولما تسلس إليهم اليأس منه، رفع هذا القائد "يده إلى السماء وأقبل على الدعاء والرغبة والتضرع والبكاء... فاهدمت ناحية من سور الحصن التي تليه، وجالت الخيل على هدمه".

كما يروي ابن حبيب في بداية القرن التاسع عن نفسه كيف رحل من أندلسه إلى مصر ليأخذ عن علمائها. وبالفعل، فلقد أخذ عن أحدهم، وهو الأندلسي المعني بتاريخ بلاده، أخباره عن ملحمة موسى بن نصير بهذه البلاد. كما أخذ عن عبد الله بن وهب، وهو مصري كذلك، أخباره عن عبور طارق إلى الجزيرة الإيبيرية. فإذا علمنا بأن حبيبا هذا هو أول من أخبر عن هذه الأحداث من إخباري الأندلس، الذين سيأخذون عنه بدورهم كثيرا من أخبارهم، علمنا كيف تسلسلت الروايات المصرية إلى هذه الأخبار الأندلسية والمغربية، وكيف هيمنت عليها، لتشكل بذلك ما نسميه من جهتنا بالتقليد المصري فيها.

ومن الأدلة على ذلك ما رواه صاحب أخبار مجموعة، في معرض تفسيره للسرعة المذهلة التي تم بها الغزو الإسلامي للجزيرة الإيبيرية، من أخبار غير معقولة عن خدعة موسى بن نصير لأهالي مدينة مريدة Merida فلكي يدفعهم إلى الاستسلام استقبل ممثليهم في الجولة الأولى من مفاوضاتهم، بلحيته البيضاء، ثم فاضهم في الجولة الثانية بلحية حمراء، قبل أن يفاضهم في النهاية بلحية سوداء. ولقد كان ذلك كافيا لكي يظن هؤلاء المفاوضون بأن الرجل ومن معه يتغيرون ويتحولون بمشيئتهم من شيوخ هرمين إلى شباب أقوياء، مما يرجح بأنهم بالفعل من أكلة البشر. وكأنه لم يكن بمقدور هؤلاء المفاوضين التمييز بين اللحية الأصلية واللحية المخضبة والمصبوغة. مما لا شك فيه أن هذا الإخباري كان قد قرأ تفسير ابن عبد الحكم، وهو إخباري مصري، لنجاح الغزو المذكور ولسرعته وهوله. لقد خدع طارق الإبريين وجعلهم يعتقدون بأن العرب من أكلة لحوم البشر، عندما قتل جنوده أسيرا من أسراهم ثم طبخوه في قدر، وطبخوا لحما آخر في آنية ثانية، ثم أراقوا خفية عن بقية الأسرى القدر الأولى، وأخذوا يأكلون أمام أعينهم لحم الثانية، قبل أن يطلقوا سراحهم ليرعوا بقية الإبريين بما شاهدوه ويدفعوهم إلى الاستسلام<sup>(36)</sup>.

وبذلك يتضح بأنه لا يمكن أن تكون محل تصديق المؤرخ الحصيف مثل هذه النصوص العربية

والبربرية، التي هيمن على قسم كبير منها الخيال الروائي، وانحصر فيها الفعل التاريخي الرصين. فهي لا تقدم، مثلها في ذلك مثل نظيراتها اللاتينية والأندلسية، تفسيراً مقنعا للغزو العربي لإسبانية ومصالحة من تم هذا الغزو. وتكتفي في هذا المضمار بإنتاج مجموعة من الحرافات التي ما فتئت تتردد في المقررات الدراسية بين أطفال العالم بأسره، وفي كتب كبار المؤرخين وبين عموم المتخصصين. علما بأنّها، وكما ذكرنا ذلك سالفاً، لا يمكنها أن تصمد في وجه النقد التاريخي. ومع ذلك، فلا بد من الاستئناس بها لإعداد تصور تقريبي للأحداث التي جرت في إسبانية خلال القرن الثامن. وفي هذا الصدد، فإن تفضيلاتنا ستنتصر إلى اللاتينية والأندلسية منها، بحيث لن نحتاج إلى المصرية والمغربية منها إلا عندما سيتعلق الأمر بتأكيد خبر محتمل من أخبار الأولى.

وبالنظر إلى عوامل عديدة، عرجنا على بعضها وسنتناول أخرى في فصول لاحقة من هذا الكتاب، فلقد حولت هذه الأخبار اللاتينية النصرانية والعربية الإسلامية حدثاً عرضياً في تاريخ العلاقات المتبادلة بين شبه جزيرة إيبيرية والشمال الغربي لإفريقية إلى حدث تاريخي جسيم، تنسلت من الحديث عنه وروايته أسطورة الغزو العربي لإسبانية التي لم يزلها توالي الزمان إلا رسوخاً في الأذهان والعقليات والمشاعر. يتعلق هذا الحدث بموت الملك القوطي الغربي غيطشة الذي خلف وراء ظهره أبناء غير مؤهلين لاستخلافه بالنظر إلى صغر سنهم. لذلك قامت جماعة من الإسبانين بانتخاب رودريغو ملكاً عليهم بطليطلة، طبقاً للمقتضيات الجرمانية في انتخاب الملوك القوط. غير أن هذا الأمر لم يحض بقبول أغلبية الإيبيريين وبرضاهم، مما أدى إلى نشوب حرب أهلية بين أنصار رودريغو وحلفائه السياسيين والدينيين وبين أنصار ورثة غيطشة وحلفائهم السياسيين والدينيين كذلك<sup>(37)</sup>. ضمن هذا الإطار طلب هؤلاء النصارى من حاكم منطقة طنجة من شمال المغرب الذي كان في تلك المرحلة من تاريخه تحت السيادة القوطية. وبالفعل هب يوليان إلى نصرته وأرسل إليهم بضع مئات من المحاربين الذين عبروا مضيق جبل طارق ليساعدوا حلفائهم الإيبيريين على هزم الملك المعتصب لعرشهم وجنوده في معركة وادي لكّة قرب قادس. ولقد توالى بعد ذلك معارك هذه الحرب الأهلية ومناوشاتها بين مختلف قادتها وأنصارهم، طيلة ستين سنة متتالية.

يتعلق الأمر إذا بمساهمة مغربية عرضية في أحداث حرب أهلية إيبيرية تحولت، على يد الإخباريين العرب المسلمين واللاتين النصارى الذين أخبروا عنها، بعد انصرامها بأكثر من قرن ونصف، إلى ملحمة خرافية، ثم إلى أقوى الأساطير التاريخية استعصاء على النقد ورسوخاً في الأبحاث والعقول. ولا غرو في ذلك، ما دامت قد أفلحت هذه الأسطورة على يد هؤلاء الإخباريين، ثم على يد من تلاهم من المؤرخين، في تفسير تحول إسبانية من النصرانية إلى الإسلام ومن الثقافة الرومانية الغربية إلى الثقافة

الإسلامية الشرقية. والحق أنه إن كنا قد فسرنا موقف أولئك الإخباريين في ضوء السياق التاريخي لوضع حولياتهم وفي ضوء تواضع إمكانياتهم النقدية، فإنه لا يمكننا أن نحمل موقف هؤلاء المؤرخين المحدثين والمعاصرين إلا على محمل تقاعسهم عن تشغيل عدتهم النقدية لمراجعة هذا التفسير الميكانيكي والساذج للأحداث والوقائع.

غير أنه إن لم نربط بين ذاك الحدث العسكري المتمثل في عبور المغاربة إلى شبه الجزيرة الإيبيرية، وبين دخول الإيبيريين في الإسلام واندراجهم في الثقافة الإسلامية الشرقية، فكيف يمكن أن نفسر من جهتنا تفسير تحول هؤلاء عن نصرانيتهم وثقافتهم الغربية إلى ذاك الدين وهذه الثقافة؟

لقد اتضح لنا اليوم بأن انتشار الإسلام والحضارة العربية في العالم لم يتم بفضل الإمكانيات العسكرية والهجومية والحربية للمسلمين، بل يرجع إلى ما يتمتع به الإسلام، مثل غيره من الأديان الأخرى والحركات المشابهة، من إمكانيات أخرى، كان لها الدور الأساس والحاسم في انتشاره. يتعلق الأمر بمختلف الأفكار والمبادئ الروحية والعقدية والشرعية والحضارية التي جاء بها، والتي نسبها من جهتنا بالفكرة القوة *Idea-fuerza*، أو بالفكرة القادرة على إحداث أقوى التغيرات وأعمقها في العالم وفي الناس. لذلك سنهتم في الفصل الموالي من هذا الكتاب بدراسة هذا الأمر، مثلما سنعمى في فصول القسم الثاني منه، باستعراض كيف تطورت الأفكار والمواقف الدينية بصفة تلقائية في إيبيرية وفي الشرق الأوسط، قبيل القرن الثامن وخلال ما تلاه من قرون، في اتجاه بلورة حالة روحية وذهنية وتشكيلها بالشكل الذي سيساعد عقيدة محمد<sup>(38)</sup> على الانتشار السريع في هذه البلدان. والحق أننا نتوافر على كثير من المصادر والشواهد المختلفة التي تسمح لنا بالاستدلال على هذا الأمر أكثر مما نتوافر عليه للنظر في الغزو المزعوم. فمن حسن طالعنا في هذا المضمار، أن التاريخ قد احتفظ لنا بنقوش وخطوط متعلقة بذلك، وبمنشآت عديدة، من مثل مسجد قرطبة، التي يقترن فيها المعماري بحركة الأفكار الدينية المذكورة. وذلك فضلا عن نصوص لاتينية متعددة تسمح قراءتها بإعادة تأسيس نفس الحركة التي تواجه داخلها وبمقتضى منطقتها الإسبانيون النصارى الأريوسيون الموحدون والإسبانيون النصارى الكاثوليك المثلثون فيما بينهم. وهي نصوص لا يتسرب الشك إلى صحتها، دونت نسخها خلال حياة مؤلفيها فيما بين القرن الرابع والقرن التاسع، وما زالت محفوظة بصورة جيدة في المكتبات الوطنية والمكتبات الكاتيدرائية ومكتبة الإسكوريال. وهي بذلك تشكل في ذاتها كترًا قيمًا من الوثائق الكفيلة، كما قلنا، بتتبع حركات الأفكار الدينية المذكورة، لرسم معالم الأريوسية وخصائصها، ولإلقاء الأضواء الكاشفة على الأحداث والوقائع التاريخية التي عرفتها إسبانية فيما بين القرن الثامن والقرن التاسع؛ أي خلال مرحلة تفاعل هذه الأريوسية مع الإسلام في السنسكريتية الخلاقة

التي ستسمح بانتشاره في هذه البلاد وترسخه فيها".

الهوامش:

1- والمقصود بالأندلس، كما لا يخفى على أحد، الحضارة العربية الإسلامية التي اتخذت من الجغرافية الطبيعية والتاريخية لشبه الجزيرة الإيبيرية مجالا لجغرافيتها الثقافية في مطلع القرون الوسطى وإلى مطلع الأزمنة الحديثة بحسب التقويم الميلادي والغربي للتاريخ.

2- ولد إغناسيو أولاغوي فيدلدة Ignacio Olagüe Videla بغويونكو Guipozcoa بشمال إسبانية سنة 1903، وتوفي بشاطية سنة 1974. ويعد من بين الإسبانيين المشاركين في كثير من العلوم المختلفة والمتعددة؛ توزعت فيما بين الدراسات القانونية والعملية البحثية؛ علم الإحاثة والجيولوجية وبين التاريخ والدراسات الأدبية، فضلا عن الإبداع الأدبي الذي أنتج ضمنه كثيرا من القصص والروايات والمسرحيات. ومن أهم كتبه بالإضافة إلى الكتاب الذي نتطرق إليه فيما يليه، كتابه الموسوم: التخلّف الإسباني. ويعد من جهة أخرى من أهم الرواد الأوروبيين الذين اهتموا كثيرا بإدراج عامل التحولات المناخية ضمن تاريخهم وتفسيرهم للتاريخ. كما يمكن أن يعد من بين الرواد الأوروبيين الذين اهتموا بصفة مبكرة بالعلاقة بين الحضارات؛ بحيث وجدناه يتقلد مهمة نائب رئيس الجمعية الدولية للحضارات المقارنة. ولقد انتسب أستاذا شرفيا إلى جامعة تولوز الفرنسية، كما جمعت علاقات علمية وصداقة حميمة بالمؤرخ الفرنسي فرناند بروديل الذي لا ينازعه أحد حجة تاريخ المتوسط، مما يفسر اهتمام هذا الأخير بكتاب أولاغوي موضوع هذه السطور. ولزيد من المعلومات عنه وعن عطائه العلمي المتنوع يراجع: العدد الخاص عن ذكره من أمشاج دار فيلسكس الفرنسية بمديرد، وكذا المقدمة التي أنجزها الفرنسي برنارد فانسون Bernard Vincent لنفس الكتاب.

Ignacio Olagüe, La revolucion islamica en Occidente, Cordoba, 2004. In memoriam. D. Ignacio Olagüe y Videla. In: Mélanges de la Casa de Velázquez. Tome 10, 1974. p. 559.

3- والحق أن إغناسيو أولاغوي قد تميز من بينهم بطرح هذا السؤال في أحد كتبه التي ترجع إلى عقد الستينات من القرن الماضي، والذي وسمه: الثورة الإسلامية في الغرب. وفيه يدافع عن أطروحة مركزية مفادها أن العرب المسلمين لم يغزوا إسبانية ولم ينشروا بين أهلها إسلامهم بالقوة العسكرية. وبما أنه لم يكن من الممكن طبع كتاب يتضمن مثل هذه الأطروحة ونشره في إسبانية خلال هذه المرحلة من تاريخها المعاصر، فلقد دفع بخطوطه إلى عمدة تاريخ البحر الأبيض المتوسط الفرنسي فرناند بروديل Fernand Braudel الذي كلف جان باير Jean Baert بتلخيصه وترجمته إلى الفرنسية. وبالفعل فلقد تم هذا الأمر ونشر الكتاب بباريس سنة 1969 بعنوان: العرب لم يغزوا إسبانية قط.

Ignacio Olagüe, Les arabes n'ont jamais envahi l'Espagne, trad, Jean Baert, Paris, 1969.

وفي 1974 صدر الكتاب بلغته الأصلية وبمعنائه الأصلي في بإسبانية.

Ignacio Olagüe, La revolucion islamica en Occidente, Barcelona, 1974.

ثم أعيد نشره في قرطبة بنفس العنوان في سنة 2004.

Ignacio Olagüe, La revolucion islamica en Occidente, Cordoba, 2004.

ولقد ترجم إسماعيل الأمين إلى العربية النشرة الفرنسية المذكورة لهذا الكتاب، إسماعيل الأمين، العرب لم يغزوا الأندلس. رؤية تاريخية مختلفة، لندن، 1991. ونعني حاليا من جهتنا بنقله إلى العربية اعتمادا على نصه الإسباني الأصلي كما جاء في نشرة قرطبة وحساب ناشرها، ولقد حظي هذا الكتاب بكثير من القراءات ومن المراجعات النقدية التي ترمي إلى تفنيد أطروحته ودحضها. ومنها مراجعة بير غيشارد وغيره. والواقع أن هذا الكتاب قد استعاد الاهتمام به؛ بحيث لا نعدم من يتبنى أطروحته ويوظفها بصفة إيجابية في كتبه وأبحاثه كما فعل إميليو فرين.

Pierre Guichard, Les Arabes ont bien envahi l'Espagne: les structures sociales de l'Espagne musulmane, Annales, Année 1974, Volume 29, Numéro 6, 1483 – 1513.

Emilio Gonzalez Ferran, Historia General de Al Andalus. Europa entre Oriente y Occidente. Almuzara, Sevilla 2006.

وهناك من المؤرخين من يتبنونها بصفة جزئية

Thomas F. Glick, Cristianos y musulmanes en la Espana medieval, version espanola de, Pilar Aguirre Marco, Maria Luz Lopez Terrada y Victor Navarro Brotens3. ed, Alianza editorial, 2000.

وذلك فضلا عن تيار أخذ يجد اليوم صدى طيبا بين بعض الأوساط الثقافية الإسبانية الهامشية، التي تشكل ما يمكن أن نسميه بالوعي

الضدي الداخلي لهذا البلد، يسمى بتيار الأولاغويين. **Los Olaguitas**

4- ولا بأس من التنبيه في هذا الصدد، ولو على سبيل الاستطراد المفيد، بأن الغرب النصراني قد وجد وما فني يجد في أطروحة هذا الغزو المزعوم شاهدا مستمرا على ما لم يكن عن ترديده أبدا عن العنف في الإسلام وعن اعتماده من طرف المسلمين لنشر دينهم بين الناس ولضمان سيطرتهم عليهم وعلى بلادهم. وكيف لا، ولسان حاله يقول اليوم، ضمن أدبياته ومسلكياته الإسلاموفوبية وروحها العامة في التخويف من الإسلام والمسلمين، بأن الإسلام، قد أخذ منه الجزيرة الإيبيرية وهي قطعة من جغرافيته الفزيائية والدينية والثقافية واستأصلها عنه طيلة قرون متتالية، وأنه يمكن لهذا الدين، إن استطاع التمكن كما استطاع في الماضي، أن يعاود الطمع فيه وغزوه بأهله الذين لا يقصرون مع عدم تمكنهم من إرهابه بهجمات الانتحاريين منهم. فمن المعروف بأن الهجمات التي قام بها بعض المسلمين في بلادهم وبلدان الغرب الأوروبي والأمريكي، إذ تسيء في ذاتها إلى الإسلام والمسلمين وتجلب عليهم كل الأضرار والمفاسد الممكنة، فإن الغرب يجعل منها مطية موضوعية لتخويف أهله والعالم بأسره من هذا الدين ومن أهله.

5- يشكل في الواقع هذا التصور في ذاته موضوعا آخر عاجله أولاغوي من خلال رجوعه، في فصول عديدة من كتابه، إلى تاريخ الأفكار وتاريخ الديانات في شبه الجزيرة الإيبيرية، اللذين أسهما بصفة أساسية في تحولها إلى الإسلام وثقافته وحسما فيه. وذلك بالنظر إلى أن هذه الجزيرة قد ارتبطت بأفكار شرق البحر الأبيض المتوسط وفلسفاته، خلافا لما يظن عن انتمائها إلى الثقافة اليونانية - الرومانية، وبالتالي الغربية الأوروبية. وكذلك بالنظر إلى أن الإيبيريين لم يكونوا في أغليبتهم الساحقة، ومنذ القرن الرابع الميلادي على النصرانية الرومية الكاثوليكية التثلية، بل على ضرب آخر، ومغاير، من ضروب هذا الدين.

6- والمقصود بهذا الأمر أن هذا النمط من اقتصاد الندرة لا يمكن أن ينتج الثروات أو يراكمها. وبالتالي فإنه لا يمكن أن يسمح أبدا بتجيش الجيوش وغزو الناس. ومن المعروف أن الحوليات التاريخية القديمة قد زعمت بأن العرب قد خرجوا في جيوش جرارة ومتعددة وانصرفوا فرغا في الغزوات والحروب شرقا إلى بحر البنجاب وغربا إلى شبه الجزيرة الإيبيرية.

7- تذهب الحوليات إلى أن الدون خوليان **Don Julian** حاكم منطقة شمال المغرب باسم العرش القوطي الإيبيري، هو الذي دل العرب المسلمين على طريق الظفر يابيرية، انتقاما منه لشرف ابنته الذي كان قد أهدره ملكه رودريغو، وهو الذي زودهم بالمرابك الأربعة التي كان يتوافر عليها للقيام بذلك. فهل كان من الممكن لهذا العدد من السفن أن يكفي لنقل هذه الأعداد الوفيرة من الجيوش، وكم كان يلزمهم من الوقت؛ أي من الأيام القابلة للإبحار للقيام بذلك في مضيق من أخطر المضائق التي تكاد تخضه الرياح الشرقية والغربية طيلة أغلب أيام السنة، فضلا عما يضطرب فيه من التيارات البحرية الأطلسية والمتوسطية القوية.

## 8- Ignacio Olagüe, La revolucion islamica en Occidente, op. cit. 36.

9- لقد جاءت روايات القدماء النصراني والمسلمين متأثرة بالسياق التاريخي لوضعها؛ المتميز بتفشي العداء والمنافسة بين النصرانية والإسلام بالأندلس، عند إعدادهم لها، فضلا عن أن علم التاريخ لم يكن قد ظهر بعد بينهم جميعا. أما أخذون فإنه لا يمكن فهم موقفهم من الإسلام وانتشاره بالعنف من خارج موقفهم المسبق من هذا الدين وأهله.

10- كما عاد كذلك إلى مصادر أخرى كثيرة ومتنوعة استعان بها على تقصي أحوال تحولات تاريخ الفكر والأفكار الدينية في شبه الجزيرة الإيبيرية التي أسهمت، بالنسبة إليه، في تفاعل هذه الجزيرة مع الإسلام وثقافته طيلة قرنين من الزمان، من قبل أن تتحول في مجملها إليهما. والمقصود بذلك مصادر بعض مراحل ما قبل الغزو المزعوم وبعده، مما لن نتطرق إليها في هذه المساهمة في هذا الكتاب الجماعي عن التنافر والتلاقي بين العالم الإسلامي والعالم المسيحي في القرون الوسطى. يتعلق الأمر بنصوص بعض المسكوكات بالأفكار الدينية للبرسليانية **Priscilianismo** (مذهب ديني نصراني شبه الجزيرة) وللمعتقدات ما يسمى في النصرانية بمهرطقة النبي **Adopcionismo** وخاصة للمعتقدات الدينية للأريوسية التي كانت عليها ساكنة شبه الجزيرة الإيبيرية قبل اندراجها في سيرورة تحولها من هذه النصرانية التوحيدية والموحدة إلى الإسلام وثقافته.

11- خاصة وأنه يكاد لا يعرف هذا الجهد الذي استفرغه أولاغوي في مراجعة أسطورة توسل المسلمين بالعنف الحربي لنشر دينهم وثقافتهم في شبه الجزيرة الإيبيرية، وفي إعداداته لأطروحة بديلة وتفسير ملثم لانتشار ذلك الدين وثقافته بين ساكنة هذه الجزيرة.

12- Eduardo Saavedra, Estudio sobre la invasión de los árabes en España, p 2, Madrid, 1892.

13- Louis Bréhier, Le monde byzantin, Paris, 1969-70, t III, p 344.

**14- [من المعروف أن الإصلاحات الدينية المرابطة كانت قد طالت المغرب أكثر مما طالت الأندلس، وإن كنا لا ندعي من جهتنا بأنهم لم يحملوا الأندلسيين على تصور متشدد للإسلام ولممارسته، ولتدبير علاقتهم بنصارى الجزيرة وماليكهم. أما الإصلاحات النصرانية الكلولية فهي الإصلاحات التي جاء بها مشروع دير كلوني الفرنسي إلى إسبانية. فلقد كان قد رأى بطرس المجل *Petrus Venirabilis* رئيس هذا الدير بأن النصرانية في إسبانية المنظمة والمديرة داخل كنيسها المستعربة، قد انحرفت وتقرطت نتيجة تعايشها مع الإسلام واستخدامها للغة العربية، مما يستدعي العمل على إصلاحها للعودة بما إلى أصولها الحقيقية. والجدير بالذكر في هذا المضمار بأن هذا المشروع يعد أول مشروع نصراني لاتيني للتعرف إلى الإسلام والمسلمين. فهو المشروع الذي احتضن أول ترجمة لاتينية للقرآن الكريم، التي امتدت تصوراتها عن هذا الكتاب في مجموع الترجمات اللاتينية والأوروبية، وما فتئت مهيمنة في الترجمات الاستشرافية لهذا الكتاب إلى الآن. تراجع المصادر والدراسات المذكورة في الهوامش أرقام: 3 و4 و5. وكذلك محمد عبد الواحد العسري، الإسلام والمسلمين في تصورات الاستشراق الإسباني. من ريموندس لولوس إلى أسين بالثيوس، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، 2003.]. العسري محمد عبد الواحد، "أصول الصورة المشوهة لحمد في الغرب الأوروبي ومكوناتها: قراءة في تاريخ الاستشراق الإسباني ونماذجه وامتداداته"، الأبحاث العلمية للمؤتمر الدولي (نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم)، الجزء الخامس، جامعة الإمام سعود، الرياض، 2010، 2791-2845.**

**15- [ستتحول هذه القصة إلى أسطورة مستحكمة في اللاوعي الإسباني. ولقد تتبع تواريخها وجودها وكذلك انبعاثها كالعنقاء من رمادها ميتيدال بيدال في تعبيراتها الفنية والأدبية في المسرح والقصة والرواية وغير ذلك].**

**Ramon Menéndez Pidal, Floresta de leyendas heroicas espanolas: Rodrigo, el ultimo Godo, Madrid, 1956-58.**

**16- Felix Dahn, Die Konigie der Germanen, t V, Munich y Wurtzburg, 1861-1871, p 226.**

**17- Lévi-Provençal, Histoire des musulmans d'Espagne, Maisonneuve, Paris, 1950.t.1p3.**

**18- Eduardo Saavedra, Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana, op.cit, p 2**

**19- Dozy, Reinhart Pieter, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, Leyde : E.J. Brill, 1860**

**20- Sandoval, Historia de los cinco obispos, Pamplona, 1615.**

**21- Henrique Florez. Espana Sagrada, Madrid : Antonio Marín, 1759, T. VIII.**

**22- P.J Tailhand, S. j, L'anonyme de Cordoue. Chronique rimée des derniers rois de Tolède et de la conquête de l'Espagne par les arabes, Ernest Leroux, Paris, 1885.**

**23- Teofilio Martinez Escobar, Revista de Filosofia, literatura y ciencias de Sevilla.**

**24- Dozy, Reinhart Pieter, Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le Moyen Age, op.cit. las primeras paginas del. vol. I.**

**25- Teodor Mommsen, Cronica minora, t II, 1894.**

**26- Simonet, Francisco Javier, Historia de los mozarabes de Espana, Real Academia de la Historia, Madrid, 1897-1903, p. 234.**

**27- [والحق أننا نجد عبارة: محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون مرسومة على دائرة الدرهم الأندلسي. وذلك على الأقل، منذ 154 هجرية، أي خلال بداية عهد الإمارة بالأندلس، وبالضبط على عهد عبد الرحمن الأول.**

**راجع أوصاف هذه العملة الأندلسية وصورها: Las monedas de Al-Andalus,**

**<http://www.islamyalandalus.org/nuevo/historia/bibliografia.htm>.**

**وفي ذلك ما يضعف حجة إغناسيو أولاغوي الذي، مما لا شك فيه، أنه لم يكن قد وقف على هذه العملة.**

**28- Emilio Lafuente Alcantara, Coleccion de cronicas arabigas, t I, Real Academia de la Historia, 1867.**

[لقد نشر إبراهيم الأبياري هذا الكتاب بعنوان أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، بيروت - القاهرة، ط. 2، 1989. ولقد حاولت دولوريس أولفير بيرث Dolores Oliver Pérez تحديد مؤلف هذه الحولية في مقالها الموسومة:

LOS AUTORES DEL EL AJBÂR MAYMA'A: ¿LOS TAMMAM B. 'ALQAMA?  
[http://www.islamyal-andalus.org/publicaciones/ajbar\\_maymua/cap01.htm](http://www.islamyal-andalus.org/publicaciones/ajbar_maymua/cap01.htm) ]

29-Pascual de Gayangos, Memoria sobre la autenticidad de la cronica denominada del moro Rasis leada en la Real Academia de la Historia por Don Pascual de Gayangos al tomar posesion de su plaza de académico supernumerario, Memoria de la Real Academia de la Historia, t. VIII, 1850.

[أبو بكر أحمد بن محمد الرازي، ويعرف أيضا بـابن لقيط، (ت. 344هـ/955م). يراجع كتاب الدكتور أحمد مختار العبادي، في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، 1978، ص 377.]

30- Eduardo Saavedra, Estudio sobre la invasion de los arabes en Espana, Madrid, 1892.

31- Ibn al-Qutiyya, Muhammad b. `Umar, Ta'rij iftitah al-Andalus. Espanol-Arabe. Historia de la conquista de Espana de Abenalcotia el Cordobés: seguida de fragmentos historicos de Abencotaiba, etc./traduccion de Julian Ribera y Tarrago. Coleccion de obras arabigas de historia y geografia; t.2, Madrid: Tipografia de la "Revista de Archivos", 1926.

[ابن القوطية أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز الأندلسي القرطبي (367 - 977) تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة-بيروت، 1999]

32- [أبو مروان عبد الملك بن حبيب بن سليمان بن هارون السلمي القرطبي (توفي 238 هجرية) اشتهر بوصفه من أهم فقهاء المالكية بالغرب الإسلامي وله مؤلفات فقهية عديدة. ومن غير الفقهية مؤلفه: افتتاح الأندلس. اعتنى به عبد الغني مسطو ونشره موسوماً: كتاب التاريخ، المكتبة العصرية، 2008].

33- Ibn Jaldun, `Abd al-Rahman b. Muhammad , Histoire des Berbères et des dynasties musulmanes de l'Afrique septentrionale/Khaloudoun Ibn; traduit de l'arabe par le Baron de Slane; nouvelle ed. publiée sous la direction de Paul Casanova. 2 ed, Paris: Librairie Orientaliste: Paul Geuthner, 1969.

34-Gomez Moreno, "las primeras cronicas de la Reconquista, El ciclo de Alfonso III", Boletín de la Historia, 1932, p 615.

35. يتعلق الأمر بالفعل بخرافة. وهي مدونة في نص مجهول ملحق بكتاب تاريخ القوط للقدّيس إيسيدورو Historia de los Godos, de San Isidoro Florez, Enrique, Espana sagrada, op. cit, t V pp 285-286. يراجع فلوريث.

36- لقد وردت هذه الخدعة في كثير من قطع الآداب والتاريخ العالمية. كما أنها تشكل في ذاتها، كما هو معروف موضوعاً من موضوعات الفلكور الحربي العالمي كذلك.

37- فإذا علمنا بأن خال هؤلاء الورقة الذي جيش هم الأنصار كان من كبار شامسة الأيوبية الإيبيرية، فإن رودريغو وأنصاره كانوا من النصرانية الكاثوليكية.

38- [ولا بد من التنبيه في هذا المضمار على أن إغناسيو أولاغوي لم يستطع أن يتخلص من الفكرة الاستشراقية التي لا ترى في الإسلام غير دعوة محمدية، وتربط بين الدين وبين النبي الذي جاء به على عادة النصارى في ذلك. وهي فكرة استشراقية قديمة. غير أنه لا بد من القول كذلك، بأن أولاغوي لم يقصر في الرد على كثير من الدعاوى الاستشراقية ودحضها في محمد (ص)، وتكلم عنه وعمّا جاء به بكل احترام وتقدير. وذلك في وقت لم تكن فيه قد ظهرت بعد المناهج المعاصرة في نقد الاستشراق].